

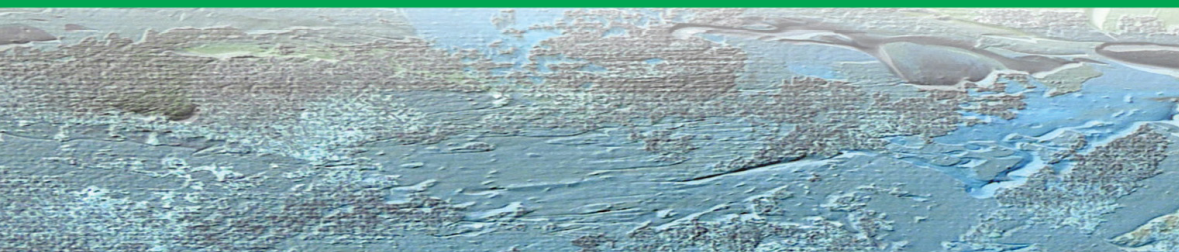


البراعة والنقد الأدبي

مجلة فصلية علمية مُحَكَّمة

ملف العدد:

الأدب والدرس اللغوي / اللساني



العدد الثالث
ربيع / صيف
2015

البلاغة والنقد الأدبي

مجلة فصلية علمية محكمة

المدير المسؤول

د. محمد عدناني

هيئة التحرير

د. إدريس الخضراوي د. فريد أمعضو د. عبد الخالق عمراوي
د. عبد العاطي الزياتي د. عبد العالي العامري د. مصطفى الغرافي

الهيئة الاستشارية

د. أحمد بوحسن د. حافظ إسماعيلي علوي د. سعيد يقطين
د. سعيد جبار د. عبد الفتاح لحجمري د. عبد الله الغنامي
د. عبد المجيد نوسي د. عبد العلي الودغيري د. عبد النبي ذاكر
د. عبد الغني أبو العزم د. مبارك حنون د. محمد بلبول
د. محمد الظريف د. محمد الأمين المؤدب د. منذر عياشي

طبع هذا العدد بدعم من وزارة الثقافة

البلاغة والنقد الأدبي - مجلة فصلية علمية محكمة

عنوان المراسلة: صندوق البريد رقم 89، البريد المركزي، الرباط المدينة، المغرب.

البريد الإلكتروني: elbalaghawaennaqedeladabi14@gmail.com

أو adnanimohammed@gmail.com

الهاتف: 05 37 35 67 44 أو 06 65 65 12 35

الملف الصحفي: 6/014

رقم الإيداع القانوني: 2014PE0036

ردمدم: 8790-2351

الغلاف من تصميم الفنان: محمد السالمي

الطباعة: دار الأمنية - الرباط

التوزيع: سبريس

لا تعبر المواد المنشورة عن وجهة نظر هيئة التحرير والهيئة الاستشارية

المحتويات

- كلمة العدد 5
- دراسات وأبحاث:
- 9 - نحو نقد نفسيّ جديد: الناقد المعاصر بيير بيار نموذجاً (حسن المودن)
- 23 - مفهوم الأدب من الشكلائية إلى التداولية (سعيد جبار)
- 37 - سردية الأزواج: قراءة في النص السردى «حي في العماء» لرشيد مجايوي (عبد الرحمان التمارة)
- 55 - نحو نظرية نقدية ثقافية عربية: سؤال الهوية والمفاهيم والأبعاد (عابد لزرق)
- صورة المرأة والرجل في أقصوصة ستيفان تسفايخ:
- 71 «أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة» (محمد الباح)
- 81 - القرآن: من بناء النص إلى بناء العالم (منذر عياشي)
- 93 - البلاغة والابلاغة: من الوظيفة الحجاجية إلى الوظيفة الأنفعالية (مولاي حفيظ العلوي)
- ملف العدد (الأدب والدرس اللغوي/ اللساني):
- إرهاصات التفكير اللغوي الحديث في نظرية «النظم»
- 109 عند الجرجاني (صبيحة جمعة وسعاد اليوسفي)
- 121 - الهندسة الفضائية لبنية المسار في اللغة العربية (عبد العالي العامري)
- 139 - عندما تخلق النظرية مقومات تجاوزهها: قراءة في مصير وظائف اللغة (مبارك حنون)
- 167 - نحو مقارنة مثلى للتواصل والفهم (محمد بلبول)
- 179 - اللسانيات والأدب: مبحثان معرفيان (محمد غاليم)
- إشكالية الهوية والتحديث في الخطاب اللساني العربي الحديث:
- 197 نحو منظور تأصيلي إستمولوجي (أحمد الملاخ)
- ترجمة:
- 209 النوع والتاريخ: حول آلية تطور الأنواع (وثام المددي)
- سيرة وحوار:
- الأستاذ مولاي أحمد العلوي والدرس اللغوي/ اللساني:
- 219 مسار حقل ورجل (محمد عدنانى ومحمد الدرويش)
- قارئ وكتاب:
- «الخطاب الاشتباهي في التراث اللساني العربي» للبشير التهالي:
- 235 إضاءة منهجية (السعيد أهرو)
- قضايا نقدية وبلاغية:
- النفي الضمني (المستلزم) والقوة الإنجازية في اللغة العربية:
- 253 مقارنة لسانية وظيفية (محمد مرزوق)

الأستاذ مولاي أحمد العلوي¹ والدرس اللغوي / اللساني : مسار حقل ورجل

حاوره: محمد عدنان²

ومحمد الدرويش³

الأستاذ مولاي أحمد العلوي عَلَّمَ من أعلام اللغويين المغاربة والعرب. رجلٌ مسار حافل بالعطاء العلمي السخي داخل الجامعة وخارجها. أبدع في أربعة اتجاهات أو أكثر (للتمثيل لا الحصر). فأما أولها، فتقلده لمناصب علمية وإدارية رفيعة داخل الجامعة المغربية وغير العربية، مما إن تتبعناه جُملة ضاق بنا وبه المقام. وأما ثانيها، فتكوين جيل كبير من خيرة الأساتذة الذين اشتغلوا بالدرس اللغوي/ اللساني، وتحولوا بدورهم إلى مُكونين ومنتجين فعَّالين في هذا الحقل. درَّسَهُم وأشرف على بحوثهم، وتابع مساهمهم تقويماً وإرشاداً... ووجههم حيث تنبأ لهم بالنبوغ فنبغوا... وثالثها، أنه مؤسس ورئيس نادٍ علمي عريق يتناغم وتخصسه، سعى ويسعى من خلاله إلى ترسيخ مبادئ البحث اللغوي/ اللساني في المغرب، وذلك خارج أسوار الجامعة، وإن كان ينتسب إليها بأكثر من سبب، إن على مستوى طبيعة الموضوع أو الرجال المنخرطين فيه. إنه اتحاد اللسانيين المغاربة، الذي يضم جملة من خيرة الباحثين المغاربة في حقل اللغويات بمختلف توجهاتها ومشاربها. ورابعها، أنه صاحب مشروع علمي خاص به، يتوج مساره وأنشطته داخل الجامعة وخارجها، تُؤثِّه العديد من الكتابات التي اطلع عليها القارئ المغربي والعربي في شكل مقالات أو مداخلات أو لقاءات أو كتب ذاع صيتها حيثما وُجد اللغويون/ اللسانيون، وحيثما وُجد الراغبون في التَّشَبُّع بقيم البحث في اللغة، و اكتنَّه أسرارها العجيبة، وهم كُثُر بكثرة بلدان البحث شرقاً وغرباً.

ويكفي أن نذكر من مؤلفات الرجل ما يلي:

- الطبيعة والتمثال: مسائل عن الإسلام والمعرفة، الشركة المغربية للنashرين المتحدنين، الرباط 1988.
- التفسير القرآني والبرهان اللغوي (بالفرنسية). دار عكاظ. الرباط. سنوات الثمانين.
- استمولوجية اللغويات العربية (بالفرنسية). دار عكاظ. الرباط. سنوات الثمانين.
- الأمشاج النحوية. بحوث في الإستمولوجية اللغوية العربية. في طريق الطبع بمؤسسة زاوية للنشر بالرباط بعد أن كانت نشرت من قبل في مجلات ودوريات ابتداء من سنة 1970.

1 - رئيس اتحاد اللسانيين المغاربة. أستاذ باحث في اللغويات بجامعة فاس والرباط وبني ملال/ المغرب.

2 - أستاذ البلاغة والنقد الأدبي/ كلية الآداب/ جامعة محمد الخامس/ الرباط

3 - أستاذ اللسانيات/ كلية الآداب/ جامعة محمد الخامس/ الرباط.

- الأمشاج التأويلية. بحوث في تأويل النص. في طريق الطبع بمؤسسة زاوية للنشر بالرباط بعد أن كانت نشرت من قبل في مجلات ودوريات.
- العقلانية اللغوية العربية، منشورات فكر، الرباط 2014.
- المهاجر، منشورات فكر، 2014.

يسعدنا إذن أن نقدم للقارئ الحوار الذي أجريناه مع هذا البَحَّاث، ومن خلاله تَعْرِيجُ على بعض الجوانب المهمة من مساره داخل الجامعة وخارجها، طالبا وأستاذا وعالما. كل ذلك للاقتراب من الدرس اللغوي وقضاياها.

وإذ نسعد بذلك، نعترف أن حوارا بهذه الصيغة، وفي هذا المقام، بقدر ما نعتر بأنه حاول النيش في مسار الرجل، بقدر ما نعترف بأنه يظل قاصرا عن الإحاطة بكل محطات هذا المسار، نظرا لغناها وتشعبها. والأمل، بل الرغبة ملحة في استكماله في أعداد أخرى بحول الله.

فالشكر، كل الشكر لأستاذنا الفاضل مولاي أحمد العلوي على تخصيص حيز ثمين من وقته ليفتح لنا كَنَائِنَ المسار، ويتفضل -كعادته- على القراء والباحثين بهذا الحوار الممتع والمفيد.

■ الأستاذ مولاي أحمد العلوي باحث لغوي/ لساني كبير، لكن هل لك أن توضح للقارئ كيف اشتغلت بحقل اللسانيات؟

● الحقيقة أن اشتغالي باللسانيات كان من جملة اشتغالات أخرى. لم أشتغل بها على سبيل الاحتراف الأعمى. لا. كنت في أول أمري أشتغل باللغويات وبغيرها من فلسفة وأديان و تاريخ و فقه وأدب على تفاوت في ذلك وترجيح للفلسفة، بل إنني في أوقات كنت لا أشتغل إلا بها حتى إنني أظن أنها كانت موقع العبور إلى الشؤون اللغوية من بعد، كنت أنوي أن التحق بقسم الفلسفة سنة 1974 ثم عدلت عن ذلك لظروف، ثم اشتغلت بالمسائل اللغوية كفارة عن ذلك العدول، ثم انستني الأيام الكفارة وسببها. وما زالت في نزعة شديدة إلى البحث التاريخي والفلسفي بمعناه العام الذي تدخل فيه اللغويات نفسها. اللغويات العربية واللغويات عموما كانت تُداخل تلك الاشتغالات لأنها مما لا يُستغنى عنه ثم تحولت إلى اشتغال أول، ولكنها مع ذلك ظلت في إحساسي متصلة بالبحث عن أصول المعرفة اللغوية قبل البحث في المعرفة نفسها. لذلك لم أكن طيلة عملي بالجامعة داعية إلى مذهب أو نزعة، لا، كنت أنظر في كل الطرق وأبحث عن أصولها ونسبيتها وانتهى بي النظر أو البحث إلى القول بالفصل بين لغة المفاهيم التي هي لغة اللغويات بفروعها وبين لغة المادة التي هي لغة اللغة نفسها، حيثند انقلبت إلى ما يمكن أن يدعى ب «اللغويات التأويلية». و عدت إلى بداياتي الأولى المتصلة بالنصوص وتقويمها الدلالي والمنطقي، صرت في نهاية تعليمي بالجامعة أشد تواضعا من حالي في بداياتي، كنت في بداية أمري بالجامعة مقبلا على الدرس اللغوي الغربي والعربي، وكنت أعتقد أن الشروط القائمة في ذلك العهد والممتدة إلى عهدنا، أي شروط المعرفة بالمفاهيم كافية لسبر أعوار العبارة اللغوية لاكتشاف المغارة اللغوية، وكنت في ذلك الوقت مقداما في ذلك ومُبَشِّرًا به، بل لقد كنت في وقت من الأوقات أدعو الطلاب إلى الالتفات إلى فلان أو فلان من اللغويين الغربيين، بل لربما كنت أول من نبه الطلاب سنة 1970 إلى فرديناند دوسوسور وهاريس

وبلومفيلد، ثم أعرضت عن ذلك، وكنت فيه متأثرا بالتقدم الغربي الذي شاهدته في فرنسا أيام طلبي بها، وفريسة لظني أن التقدم المعماري والاقتصادي والتقني يصاحبه بالضرورة تقدم في أبواب المسائل الغيبية كالنارخ وأصله واللغة ونظامها، أعرّضتُ عن ذلك حينما تبين لي أن التقدم في البحث اللغوي بين العهود العربية القديمة والعهود المعاصرة هو تقدم في الشكل والتنظيم لا في الجوهر والقعر، وحين تبين لي كما أسلفت أن التقدم في البحث اللغوي لا يسمى تقدما إلا حين يستطيع اللغوي التعبير عن القضايا اللغوية بألفاظ بيولوجية أو فيزيائية لامفاهيمية،

كذلك كنت، لكن لم أدم على تلك الحال، فقد انتقلت إلى القول إن معرفة اللغة معرفة يقينية أمر فوق طاقة الفكر. إن الفكر لا يستطيع أن يعرف نفسه إلا إن فارق نفسه واللغة فكر، ولئن فرضنا أن اللغة تستطيع أن تفارق نفسها لتعرف نفسها لوقعنا في القول بالثالث المرفوع، فإن المفارق معدوم والمعدوم لا يعرف، وإن نسبنا إلى اللغة المعرفة وهي مفارقة نسبنا المعرفة إلى المعدوم، وإن نسبناها إليه جعلناه والكائن مترادفين وذلك قول بالثالث المرفوع وهو ممتنع لا يقول به عاقل، لذلك كتبت في ذلك العهد بعد سنة 1970 مقالات عن القول النظري والقول الطبيعي بسطت فيها حدود القول التصوري وصرحت فيها ببعض ما أشرت إليه هنا، بل أتذكر أنني كتبت مقالا طويلا نشر في مجلة كلية الآداب بالرباط عن نقد المفاهيم كان يدخل في هذا السبيل، ولا أستطيع هنا أن أحصي تلك المقالات فلعلها تجاوزت الخمسة وفتيتها بكتاب الطبيعة والتمثال الذي نشر بصورة تداخلت فيها فصوله حتى صار بعيدا عن الوضوح. وكانت غايتي منه مقاومة الخطة النظرية التي كنت عليها قبل سنة ثمانين. وكان عليها غيري معي في الجامعة وفي ميدان الفكر عموما وظلوا عليها، والتنبيه إلى أن الخطاب العلمي لا بد من أن يكون خبريا لا تصوريا نظريا. وكنت أقول حينئذ بمادية اللغة وخبرية كل حديث علمي عن المادة، وأدعو إلى التخفيف من غلواء بعض النظائر في ذلك العهد الذين كانوا يرون في النظريات اللغوية خطوة عظيمة في اكتشاف عالم اللغة، كنت أريد بذلك أن أنبههم إلى أن الخطوة العظمى هي التي تخطى حين يستطيع اللغوي الحديث عن العبارة بألفاظ بيولوجية مادية أو فيزيائية كما قدمت من قبل أو إن شئت بواسطة لائحة العناصر الفيزيائية المائة أو التي تجاوز المائة المدعوة عند الفيزيائيين بـ «اللائحة الحقيقية» Tableau periodique.

■ هل للأستاذ العلوي أن يضع القارئ أمام مسار الدرس اللغوي/ اللساني في الجامعة، أيام كنت طالبا ومُدْرِّسا؟

● كان تعليم اللغويات في سنوات الستين قويا في التعليم الثانوي الأصيل، غير واضح القوام في الجامعة، كان يتولاه في التعليم الأصيل بفاس أساتذة على دراية واسعة بالنحو العربي والأصول وجملة العلوم الشرعية واللغوية، كان الاستقلال قد حل رواقه والمغرب مزدهر الأكناف بفرح غامر لا لون له إلا لون الأمل، وكانت الدراسة في ذلك العهد متعة ما بعدها متعة، والأزمات بأنواعها مؤجلة إلى زمن محجوب، لذلك لم يكن التلاميذ في التعليم الثانوي الأصيل يشكون من ثقل البرامج الدراسية، ولا من اتساع البضاعة اللغوية التي يتلقونها من أساتذتهم وإن كانت ثقيلة بالفعل. وكان بعض العلماء علماء العربية والشرع يخففونها علينا كحال الفقيه مزور، لا يمكن أن أنسى أستاذا مثل الفقيه الزرهوني من علماء القرويين الذي درست عليه «أوضح المسالك» وابن عقيل في ست سنوات، درسنا عليه ذلك بصورة

لم تتكرر مع أستاذ آخر بعده، كانت دروسه أخصب وأدق وأجل من كل ما رأيته في الجامعة من بعد ذلك في باب اللغة العربية ونحوها وبلاغتها وأصولها، آخرون لا يُسَوون من ذلك العهد كالفقيه الشامي أستاذ الأصول، والفقيه الزيزي الذي كان مع غيره قائما على تعليم البلاغة في مرجع حديث جامع هو «علوم البلاغة» للمراغي. وأظنه هو الذي كان شيخا للأزهر يوم كان للأزهر شيوخ. ومنهم الفقيه عبد الله الداودي الذي استبدل البردة الأوربية بالجلابة سنة 1958، وكان من أهل الحدائث والذوق والمعرفة الواسعة بالفقه. كان ثانوي القرويين في ذلك العهد أعلى أستاذية من التعليم العالي بعده، فقد كان أساتذته أعلى من غيرهم وأرسخ قَدما وأطول تجربة.

كان تعليم اللسانيات في الستينيات بالجامعة متقلصا إلى الحدود القصوى، في كل الأقسام. بل إنه كان في فرنسا نفسها مقتصرًا على اللغويات التطورية في صورتها القديمة، كما كانت عند أطوان مايي وأقرانه كان اسمها في ذلك الوقت: اللسانيات، مصطلح من ابتداء أحمد الأخضر الذي كان يخص به معنى الصوتيات بمعناها الوصفي كما بينت في الكتيب الصغير كوسيج (Que sais-je)، لذلك كان الطلاب يسخرون من هذا النشاط الفكري الذي كان منحصرًا في ذلك الباب. وكانوا أيضا يتضايقون من «المغني» لابن هشام إلا الذين جاؤوا من التعليم الأصيل، فإنهم كانوا على سعة من أمرهم لأنهم كانوا قبل الجامعة على صلة بالكتب النحوية القديمة، ومن اللطيف أن أذكر أن أستاذ «المغني» في ذلك الوقت كان من علماء القرويين، ولكنه لم يكن له سابق تدريس في الجامعة القديمة، ولا اتصال بالأعمال النحوية القديمة، فلم يكن في الحقيقة من علماء القرويين إلا بالاسم.

إذن، كانت الدراسات اللغوية عموما والنحوية في الكلية واقعة في الحقيقة وراء ما درسناه على علماء القرويين قبل ذلك. وكانت تحت ما عرفته الكليات من تقدم في الدراسات اللغوية بإشراف جيلي والأجيال التي جاءت بعدنا. ولكن جيلي كان الجيل المؤسس، وكان بعض جيلنا قبل بعض زمنا وفعلا. كان في الكلية لذلك العهد أساتذة شبان غير مقصرين، وكانوا التحقوا بالكلية في سنة (1964) أو قبلها بسنة، ولكنهم كانوا جميعا يشتغلون بالأدب وتاريخه، ولم يكن منهم أحد مشتغل باللغويات، نعم كان من بين الأساتذة الموقرين في ذلك الوقت أستاذ له اطلاع على اللغويات المقارنة بحكم معرفته باللغات الشرقية، ولكنه لم يكلف بتدريس اللغويات بالرغم من ظن العارفين بأنه كان يجيد إنجاز الدرس اللغوي المقارن في الكلية لو كلف به. ولكن اللغويات شيء أوسع من المقارنة، ذلك الأستاذ هو محمد بن تاويت التطواني، كان هذا الرجل شديدا على نفسه وعلى أقرانه، ومطلعا اطلاعا واسعا على ميدان تخصصه، وكان عارفا بلغات شرقية وغربية، وكان يدرس الأدب المغربي والأندلسي والفارسية، وكان الناس يعرفون قدره كما كان يعرف قدر نفسه. وكان مشاركا بمقالات وأبحاث في باب الأدب المغربي، أما عن قدر نفسه، فقد سألته بعد سنة سبعين عن سبب إحجامه عن إعداد رسالة الدكتوراه، فأجابني بأنه سجلها مع الأستاذ د. عبد الرحمن عزام في سنوات الأربعين عن المثوي، وأنه ترك ذلك بعد وفاة المشرف، ولم يسجلها من بعد مع غيره، إذ لم يجد من يستحق أن يتبوأ موقع المشرف عليه، وأظنه كان صادقا،

وصلت إلى باريز سنة (1967) والمغرب يغلي بالأحداث والشرق يحترق بهزيمته، كانت باريز كحالتها في أول القرن العشرين وقبله، لم يكن تغير منها شيء.

في هذه الظروف أقبلت على الجامعة الفرنسية وكنت قبل ذلك قد واظبت على دراسة الفرنسية وحدي بجانب ما كنا ندرسه منها في الكلية وقبل ذلك منذ سنة (1952).

المختصر أني بحثت عن الأوضاع الجامعية في ذلك الوقت، وكان قد انتقل معي للدراسة طلبة مغاربة آخرون من كلية الآداب وعددهم أربعة أو خمسة، كانت الدراسات العربية والإسلامية تحت إشراف المستشرقين القدماء كروجي أرناالديز وريجيس بلاشير وشارل بلا وكولان ولاووست وبيرك وكاردي وبرنشفيك وفاجدا، وكان معهم بعض الشبان كتروبو ولوكونط، ولم يكن في الساحة غير هؤلاء، وكان أطيبهم مع الطلاب مع اطلاعه الواسع: أرناالديز، وكان أشدهم عليهم ريجيس بلاشير، وكان أعلمهم بالعربية شارل بلا، وقادتنى قدماي إليه، وكان له هو وبلاشير ذكر عظيم في الأوساط الجامعية العربية. وكان شارل بلا معروفا بكتاب جهزه لتعليم الفرنسية، وكان يلقي فصوله في إذاعة فرنسا وإن كان لم يطر ذكره بذلك، وإنما انتشر بكتاباته عن الجاحظ والمسعودي وإشرافه على موسوعة الإسلام ومقالاته فيها، بالنسبة لبلاشير كان السبب بيننا، فقد كان كبير السن، شيخا هَرما في أرذل العمر، وكان ضعيف البصر. ثم إن الأستاذ د. صالحا الأشر الحلبى السوري، أستاذي في الإجازة، ثم صديقي بعد ذلك في الكلية بفاس ألما تشرفت بمعاصرته فيها بصحبة الأساتذة الآخرين الشرقيين والمغاربة المؤسسين، بل المجددين لما اندثر أو كاد يندثر من العربية بالمغرب كالمصري الكبير أستاذي نجيب محمد البهيتي، والطيب الذكر د. عز الدين اسماعيل والدكتور عبد الحميد يونس، وكأستاذي الدمشقي الدكتور أمجد الطرابلسي أستاذ جيل عظيم من المغاربة، وذو الأثر الكبير فيهم. وكآخرين غابت عني أسماؤهم، ومنهم المغاربة كأخي المرحوم جمال الدين العلوي والأستاذ إبراهيم السلمي ومحمد السرخيني وجعفر الكتاني وغيرهم ممن عاصرتهم في فاس. وكان فيهم شبان عَمِنُوا مساعدين بالكلية يوم دخلناها سنة (1974) فدرست على بعضهم.

الحاصل أني أتممت السنوات الثلاث بشرها وخيرها في باريس وانتهت بالمناقشة، كان معي في ذلك العهد بالقسم نفسه الأستاذ محمد السرخيني والأستاذ المنيعي والأستاذ جعفر الكتاني والأستاذ عبد الله الحجامي رحمه الله. وتم الأمر برفعي إلى دكتوراه السلك الثالث من النظام القديم، وهي النوع الثاني في الرتبة من أنواع الدكتوراه في النظام الفرنسي لذلك العهد، وكان النوع الأول والأعلى هو دكتوراه الدولة ذات الأطروحتين.

كان يوم مناقشة الدكتوراه يوما عصيبا، كان قد بلغني عن بعض رفقائي الذين ذكرت أسماء بعضهم أنه عَصَرَ عَصْرًا. فلما حُدِّد لي ميقات المناقشة كنت متحيرا، ولم يكن يحظر ببالي أن يُعَيَّنَ في اللجنة الأستاذ أرناالديز لاشتغاله بالفلسفة، والأستاذ أركون المتفرنس الجزائري لبعده عن العربية ومعرفتي بمنزلته فيها، ولحدائته في الرتبة الأكاديمية. فقد كان مرأما للجنة للدكتوراه قبل ميقاتي بشهر أو نحو ذلك. لم أسترح أول الأمر لأركون لأنني كنت أراه يدخل ويخرج على شارل بلا الذي كان يشرف على أطروحته لدكتوراه الدولة، ولم يكن شأنه أعلى منا إلا في السن. فقد كان يتعدانا عمرا بقليل، وكان شأننا في العربية يتعداه بكثير. فقد كان يحسن الفرنسية كأهلها ويحسن العربية كالأعاجم والعلوج.

إذن، فقد بقي في نفسي شيء من أركون بسبب ما كنت أعلم عنه من اشتغال متأخر بالعربية، وبسبب ما

شاع عنه وعن الحمزاوي من عجرفة، وبسبب ما كنت أتوقعه من كل حديث شرف في الجامعة، لقد كنت أنتظر أن يُعيّن الأستاذ رجلا مثل كولان الشيخ الهرم، أو مثل لاووست أو غيرهما من الفرنسيين الذين كانوا أرحم وأطيب وأعلم من بعض أهلنا، وكانوا أحق بالعذر إن لم يجيدوا العربية كإجادتهم الفرنسية في قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، خفف من هذا الحرج أمور سآتي عليها وفي أولها عضوية الأستاذ روجي أرنالديز في اللجنة، وكان عضو اليمين.

قال أرنالديز خيرا واختصر لأنه رجل محترم عند نفسه وعند الناس، فلم يدخل في أمور لغوية وهو الفيلسوف المعني بالأفكار والقضايا العامة. ولما انتقل الحديث إلى عضو اليسار أركون دعمته نفسه أن يدخل في شؤون لفظية لغوية لم يكن يحسنها فاستطبت ذلك ووطنت نفسي على الإجابة الحارقة. ولم يكن ذلك محرما عند الفرنسيين المغرمين بحرية الكلمة. وانتبه الأستاذ شارل بلا إلى الأمر وخاف عاقبة الفضول، فقاطع أركون ومنعه من إتمام كلمته، ومنعني من الرد عليه وقال: سأدافع عن هذا الشاب؛ ورد على أركون بما أفحمه. وكان هو رئيسا للجلسة ومشرفا لأقدميته وسابقتها، وقال كلاما طيبا عن عملي ودافع عني وأشار إلى أنه يعرفه ويعرف جهدي فيه... ورفع الجلسة. وكان لا يرد له كلام ولا يتعداه في المكانة للسن والسابقة إلا بلاشير، ولم يكن بينها على الظاهر خيط ود متين.

لقد ظل كلام أركون متورطا في حلقومه وقام مع اللجنة مثقلا بما لم يقل، وانتهت المناقشة ولم تطل أكثر من بعض ساعة، وكانت أعجوبة في العصر ولا أدري سبب ذلك، فقد يكون الأمر تأديبا لأركون أو تعباً من المشرف أو استعدادا لمناقشة أو اجتماع مقبل، الحاصل أن الأمر مر على تلك الصورة. ونجوت برأس طمرة ولجام.

كان هذا كله في نهاية سنوات السبعين، والحق إني لا أدري بالضبط مصدر الغباوة التي أصابتنني فحركتنني إلى العمل مع أركون وترك العمل مع أستاذه وأستاذ شارل بلا. وقد تبين لي من بعد أنها غباوة، فقد طلبني أركون ورجاني أن أكتب له تقريرا زعم كاذبا أنه طلب منه في القسم، فكتبته ودخلت عليه في مكتب من مكاتب الكلية بسانسي التابعة للسوربون، ولما هممت بالخروج استبقاني وأقعدني وطفق يعاتبني على عبارات كتبتها بضمير المتكلم المفرد ورأى في ذلك استكبارا أسلوبيا. ولم أجبه وخرجت من الكلية إلى أقرب مقهى وكتبت إليه رسالة أعزله فيها من الإشراف وأذكره بأني ما عملت معه إلا برغبة منه إلي بفاس، وإني كنت غنيا عنه بأساتذته وأساتذتي كشارل بلا وأرنالديز وغيرهما بفرنسا، وبأستاذين أو ثلاثة من المصريين والسوريين كانوا في المغرب وعلى رأسهم نجيب البهيتي. وذكرته فيها أي لا أقبل الشروط التي ابتكرها وأن شروطي هي أن يقف عند الإشراف الإداري. لقد كان ذلك مني شدة في العبارة، وأصل الرد العنيف هو إحساسي بأنه إنما أراد أن يرد إلي القدحة التي تلقاها بسببي من شارل بلا من قبل أثناء مناقشة دكتوراه الاختصاص، كما كانت تسمى في ذلك العهد.

تركته واشتغلت مع روجي دولادريير من جامعة ليون بإشارة من شارل بلا الذي زودني برسالة لطيفة، واختار لي ذلك المشرف اختيارا بعد أن علم رغبتي في العمل مع فرنسي من قريش فرنسا. وابتسم

حين سمع مني هذا، وكنت قبل ذلك قد زرت مدام سيرياك الكاتبة العامة المساعدة للسلوربون فعمرت علي أول الأمر الانفكالك من أركون، ثم أنعمت بذلك حين علمت قصتي وعذري.

انعقدت لجنة المناقشة بعد خمسة عشرة سنة من مناقشة سنة سبعين، وكانت الأعراف في الجامعة الفرنسية تُوجِبُ ذلك الأمد في الدراسات الفلسفية والأدبية وكل دراسات كلية الآداب والعلوم الانسانية. كان لادريير رجلا نبيلاً من جيل شارل بلا وكان مثله حريصاً على الجودة واللفظ في المشافهة والمكاتبه. وكانا كلاهما من الصنف النادر في المستشرقين.

كنت لا أحب أن أستمع إلى نقد أعلمه قبل نُطق غيري به. لذلك عزمت على تقديم تقرير في مُفتتح المناقشة أُبين فيه عيوب الأطروحة التي قدمتها بإشراف لادريير وما ينبغي أن تصير إليه لو قُدِّر لي أن أعيد كتابتها. وفعلت ذلك أمام اندهاش أعضاء اللجنة. وكان فيها على مقعد رئاستها الأستاذ كودي رئيس جامعة ليون وشارل بلا عضو معهد فرنسا وجيرار تروبو المستشرق اللغوي المعروف والمشرف دولادريير واثنان آخران متخصصان في اللغويات الهندية والأوربية غاب عني الآن اسمهما. كانت اللجنة مؤلفة إذن من لغويين ومستشرقين. اندهشوا فاختصروا الجلسة وقضوا بأن المرشح ناب عنهم وأجاد في النيابة، ولم تطل الجلسة أكثر من ساعة، وأنفضَّ الجمع. ونجوت برأس طمرة ولجام مرة أخرى ولم يُقصر أعضاء اللجنة في الثناء على كلمتي الانتقادية، وخرجت من عندهم وهم في قمة الرضى. أرحتهم وأرحت نفسي من نصف يوم من الحوار والرودود...و...و... إلخ.

عدت إلى المغرب، وانطلقت في أول سنوات السبعين إلى البحث في الأصول المعرفية للنحو العربي من خلال الفصل بين المقول النحوي، أي ما يقوله النحوي، وبين المفعول النحوي. أي ما يفعله دون أن يكون شاعرا به. واستمر ذلك مدة. وبقيت آثار ذلك في الكتابين اللذين نشرتهما بالفرنسية بعد ذلك بدار عكاظ بالرباط سنة (1985). لم يكن النحوي ليعرف أنه يصنف الكائنات اللغوية المتصورة، ولم يكن عارفاً بأنه يتصور حين يتحدث عن تلك الكائنات ولم يكن يعرف أنه يحذف الزمن والمكان والأشخاص والقصة من الجمل التي يدرسها... إلخ. ذلك ما كنت أقصده بالمفعول النحوي *le Le faire grammatical*. وحدث أن تحول إلي درس اللسانيات الحديثة سنة (1971) أو قبلها. وكان المقرر لسانيات سوسور واللسانيات البنيوية على العموم، فاشتغل الأستاذ عبد الوهاب التازي بفقهِ اللغة وتابع ما كان يعمل من قبل من مباركيات نسبة إلى محمد المبارك وصباحيات نسبة إلى صبحي الصالح. والحق أني ما لقيت خلال عملي بالجامعة شخصاً حصيفاً في العمل الإداري ومرضياً فيه من كل الأطراف كعبد الوهاب التازي ومحمد الكنيدري رئيس جامعة مراكش ووزير التربية.

الحاصل أنني تقاسمت درس اللغويات مع عبد الوهاب التازي الذي تولى عمادة كلية الآداب بفاس من بعد ذلك، ثم تولى رئاسة جامعة القرويين جامعة الفقهاء، قدراً مقدوراً ككل شيء. تقاسمنا ذلك قبل انقضاء عهد الياابوري وعودة النيابة إليه وذلك منذ سنة (1970). هو يدرس فقه اللغة وتنازل لي عن الباقي، أي النحويات واللسانيات أو اللسانيات على سبيل المكارمة أسجية فيه وطبعاً.

■ هل الدرس اللغوي/ اللساني أصناف متصارعة لا جامع بينها، أم روافد تتفرع لتسير إلى مصب واحد في نهاية المطاف؟

● لم يكن هناك صراع لغوي في النصف الأول من السبعينيات، فقد كانت اللغويات التراثية والبنوية تتجاوزان، ولم يكن للتوليدية ذكر حينئذ. وكانت أعمال تروبتسكوي وجماعة براغ وأعمال بعض الروس المترجمة وبعض أعمال هاريس هي كل ما كان يتداوله المشتغلون باللغويات الأوروبية والأمريكية. إنما كان الصراع الكبير هو رغبة الأساتذة في العودة إلى الرباط موقع عملهم، إذ كان بعضهم من الرباطيين وهم على الخصوص عباس الجراري واثان آخراخ متظلمين من الحالة. وكانوا على حق، فإن بعض ذوي الإمرة في الرباط قضوا بتوطين جزء من كلية الآداب الرباطية بفاس، ولم يكن صدر قانون بذلك.

في الرباط وجدت الصراع متأورا محتدما بين أنصار الحديث والقديم، ولم أجد السلم الذي تركته في فاس. وما غادرت فاس إلا بعد أن تغيرت خريطة الشخصية. فقد التحق بأستاذيتها خلال السنوات ما بين (1970) و(1972) بعض طلبتي القدماء كمارك حنون وعبد العزيز حليلي وأنور المرتجي ومحمد الحناش ومحمد أوراغ وغيرهم ممن غاب عني اسمه. ونقلوا إلى الكلية شيئا من اللغويات البنوية الفرنسية، ولكنهم كانوا جميعا يجتنبون المبارزة والمشيخة فيما أعلم. ولا أستثني منهم إلا محمدا الحناش الذي كنت أشبهه بالفاسي في اعتقاده بنزول شيطان اللغويات عليه. وكنت أسميه فاسي خميس الساحل، لأنها مسقط رأسه بقرب العرائش. وكانت قوته البدنية والإدراكية وذكاؤه الاجتماعي الفطري يعينونه في ذلك العهد على الاتصال والمواصلة والبحث. ولكنه مع ذلك لم يكن مخلصا لشيطنه في كل الأحوال، أو كان شيطانه أدنى حبا له من شيطان الفاسي لصاحبه. ذلك أنه اختار مذهبا في اللغويات كنت أستبعده وأصيق به ذرعا ولا أستمتع به. اختار مذهب هاريس وتلميذه الفرنسي موريس كروس. ولم يقصر في الدعوة للمذهب بفاس حتى أزعج زملاءه الآخرين فأغصّو صبوا عليه. وكانوا بحكم ما تقدم لي عليهم من أستاذية يجتمعون إلي ويشتكون، وكانوا جميعا من أرقى ما أنجبت الجامعة المغربية في تخصصهم. وكانت تكون لهم الغلبة لاجتماع كلمتهم عليه ولحبه الانفراد وثقته في نفسه لولا أنني كنت أدعوهم إلى الصبر وأدعوه إلى المسالمة. لم يكن مذهب كروس وهاريس جذابا، وكان قائما على مقدمات غير بديهية. وكنت قبل أن أعرف موريس كروس بفاس عند زيارته إياها بتدبير من الحناش قد قرأت بعض أعمال هاريس وخصوصا كتابه عن اللغويات الرياضية، فلم أجد في ما كتب شيئا يستحق الثناء. وغلب على ظني أنه مظرط سفسوط {على وزن فعلول من السفسطة}. ولما علمت أن موريس كروس من أتباعه وقرأت له بعض كتبه وحضرت محاضراته ازدادت تعجبا من اختيار الحناش لمذهبه وسألته عن ذلك بعد عشرين سنة أو أكثر فزعم لي أن مذهب كروس كان الأساس لأبحاث لغوية رياضية لها صلة بالحواسيب. والعلم لله.

■ كيف كان الدرس اللغوي/ اللساني في الجامعة بالرباط؟

● انتقلت إلى الرباط وزعامة اللغويات فيها لثلاثة هم المرحوم الأغر الكريم السجايا العظيم المزايا الأستاذ أحمد الإدريسي، نادرة الدهر وواسطة عقد السر والجهر. فلقد كان خليلا مقربا إلي بأعنة من الوداد أكيدة، وبحبال من التحالف الطبعي شديدة. ثم تأكدت بتواتر عهود قديمة وجديدة وتواتر دلائل على

ذلك قريبة وبعيدة. والثاني هو أحمد المتوكل الذي لا يشق له غبار في علمه بالفرنسية، ولا يحتاج إلى شيء من أحد في العربية. وكان قواماً على الدراسات اللغوية التداولية الحديثة، وغواصاً يُحوّل الدرّ التليد إلى زمرّد نضيد، واقفاً على ذلك زمنه وجهده مع ظرف وحسن مقاربة وأدب جم. والثالث هو عبد القادر الفاسي الذي إن ضمّت بشدة سجاياه، فلا بد من أن تذكر فضله في الدفاع عن العربية بمقالات أحسن فيها وأفهم. وكان خصماً للنحو العربي القديم ومُستعدياً بذلك أحمد الإدريسي ومؤججاً لحفيظته. وكان منذ أول أمره نحوياً قواماً على اللغويات الأمريكية حتى انقادت له رقاب الراغبين فيها الظانين أن تفوق الأمريكيين في القنابل والتوماهوك يوازيه تفوق في معرفة الحقائق اللغوية وكانوا ظالمين. فإن تلك الحقائق من علم النبوة لا من علم النُّظار والنظريات. وقد أُشير إليها في آيات اختلاف الألسنة. وكان هؤلاء الثلاثة فرسان الحلبة اللغوية بالرباط. امتدت سنانك خيلهم إلى كل معترض، وردمت رماح ألسنتهم قلاع كل منتفض. وكانوا بانزوايي في فاس وزهدي في القُدوم عليهم بالرباط عالين، ولكن لم يكونوا بوفودي عليهم في الرباط أشقياء. وكانت تبغني عنهم دلائل المودة على رغم البعاد. ولم أكن أرجو أن أفارق فاس حتى ضاق الجو باشتداد أحدهم وغُلوه على غيره، فعمل ما دعاني إلى القُدوم، وكان ذلك الغير شيخ العربية فيهم.

كان أحمد الإدريسي نور الله مثواه رجلاً محيطاً بالأقوال، عالماً بالقديم مجيلاً نظره في الحديث، ولكنه لم يعتد للطف فيه منزلة لا يرجى منها خير. وضاق به الأمر ولقيني بالرباط وزين لي أن أنتقل إلى الرباط وزرته في بيته باكدال. وكنت عالماً بقدره، وكان محبباً إلي بطبعه، وإن كان بيننا بعد مسافة في الدراسة الجامعية وفرق قريب في السن. ولما حللت بالرباط بتدبير منه وتزيين لم أستجب له رغبة في مكانة، فلم أكن أحتاج إلى شيء من ذلك. وإنما حثني على ذلك طول مكثي في فاس وجوها الحار وصقيعها المهلك. ووجدت اللغويين في الرباط على غير ما تركتهم في فاس. وجدت القوم قد خاضوا في لجة الصحافة اللغوية وصاروا ناطقين بلسان فلان أو فلان من الغربيين. وكنت قد تخلصت من الدهشة الباريسية التي أصابتنى سنة (1967) وتذكرت نسبة الأقوال وقارنت ما لم أقارن من قبل فوجدت نفسي مرتمياً بين رماح وسيوف. هذا يدعو: يا لثارات فلان. والآخر: يا لثارات علان. ودخل الطلاب في المعمعة.

كنت في ذلك الوقت أعلم أن الثقافة بأنواعها إنما هي ثمرة حوار مجتمعي بين الطوائف المعنية بالحوار. وكنت أعلم أن الحوار اللغوي العربي جمد قبلنا بقرون فكان الأولى الاشتغال بالبحث في أصوله وأسباب جموده. وكنت أعلم أن الأوصاف اللغوية مجرد مجاعل Axiomatiques، وأن لك أن تجعل فيها ما تشاء، وأن برهانها صادر عن ذاتها وليس أحدها بأصوب من غيره، وإنما كلها باطلة لأنها وصف لأمر مادي بلغة مفاهيمية وهما لا يجتمعان. وكنت أزعج أن القول العلمي هو القول الخبري لا التصوري المفاهيمي.

■ هل كان لاختلاف توجهات أساتذة الدرس اللغوي/ اللساني امتداد خلف أسوار الجامعة؟ وأين يتحل ذلك؟

● استمر الخلاف بين الأساتذة الذين ذكرت أسماؤهم، وكان لهم أتباع من كل جهة. وانتهى الأمر إلى تأسيس جمعيتين أو كنيستين لغويتين: إحداهما اتحاد اللسانيين المغاربة بإشارة مني ومن الأستاذ أحمد

الإدرسي رحمه الله، ودخل فيها الأغلبية من اللغويين في المغرب والرباط. وثانيتها جمعية أخرى بإشارة من الفاسي وتبعه إليها تلاميذه.

كان ذلك سنة (1985) وكاننا أول جمعيتين وطنيتين للغويات في المغرب. وكتب لاتحاد اللسانيين الاستمرار وانعقد جمعه العام مرات في السنوات الماضية، ثم انعقد في هذه السنة (2015) وظهر اسمها في أنشطة مختلفة بالمغرب والدول العربية. ولا أدري مصير الجمعية الأخرى. ثم انطلق الصراع بعد ذلك.

■ هل للأستاذ أحمد العلوي أن يضعنا في صلب علاقة الدرس اللساني المعاصر بالدرس اللغوي العربي القديم؟ وما قصة نظراتك المتكررة في القرآن باعتباره مرجعا لغويا غنيا؟

● لا بد من أن اعترف هنا بأمر: كنت قد ابتعدت عن قراءة القرآن الكريم قبل ذلك واشتغلت بالعلوم الإنسانية والفلسفة. وما ابتعدت إلا بعد أن كنت ظننت أن الفهم السلفي والتراثي مطابق للقرآن، وأن لا فهم سواه، ولم أكن مصيبا. ومر زمن طويل وحللت بالرباط ووجدت أمامي المعمعة اللغوية فلم أجد فيها امتدادا لحوار محلي ولا مشاهدة محايدة للمعمعة الأوربية الأمريكية اللغوية. وعدت إلى القرآن الكريم فقرأته ثم قرأته فلم أجد فيه فلسفة ولا تصورا. ووجدت فيه أخبارا ثم تذكرت صغر الإنسان بالنسبة للعالم وصغر اللغة التصويرية بالنسبة إلى اللغة الطبيعية الخيرية. والحاصل أن عودتي إلى قراءة القرآن في استقلال عن الاستعانة بالتراث وأقوال السلف هداني إلى رفض الأقوال التصويرية، فألفت كتابا غامضا في ذلك هو «الطبيعة والتمثال» ونشرته، واختلط ترتيب فصوله فزاد غموضا. لكن المراد منه هو تأكيد القول بأن القرآن كتاب المعرفة لا كتاب السياسة، وأن القول العلمي هو الخبري، وأن القرآن يحدد مجال المعرفة التي لا تكون إلا خبرا عن مادة بألفاظ مادية لا مفاهيمية. ومع حلولي في الجماعة اللغوية الرباطية علمت سبب إلحاح الأستاذ أحمد الإدرسي طيب الله مثواه علي في القدوم إلى الرباط، فقد رماني في معركة وجدت نفسي مضطرا إلى المنازلة فيها. والحق أي منذ سنة (1982) إلى سنة (1996) سنة مغادرتي كلية الرباط كنت لا أشتغل إلا بدحض أسس القول النظري التصوري وإثبات نسبيته والقول بطلانه في غيره، أي اللغة والعالم وصحته في ذاته وتعادل أنماطه وصوره، وتتابع ذلك في الحقب التاريخية وتأييد القول بمعرفة القرآن وعلميته وخبريته ونسبية ما كتب عنه وفساد أغلبه ولاعلمية القول الفلسفي والنظري والتصوري المتعلق بالمادة اللغوية أو غير اللغوية. كان قولي حينئذ إن الإنسان مادة، وإن اللغة انعكاس مادي، وإن القول العلمي فيها هو الخبر لا التصور، وإن على الذي عرف خبرها أن يعرب عن ذلك بألفاظ هي ألفاظ المادة بحيث لا يكون بين القوانين اللغوية والقوانين الطبيعية من فيزيائية وكيميائية فرق. كان تدريسي بالرباط بسبب عودتي إلى قراءة القرآن الكريم بعد عباد نقيضا لما كنت أدرسه وأنتصر له في فاس قبل ذلك. وكتبت في ذلك مقالات أوضح من كتاب «الطبيعة والتمثال». ولم أقصر مرة في الاقتراب من بعض المجادلين ممن كانوا سببا في ضيق الأستاذ الإدرسي بجو الرباط فكتبت مقالة طويلة باسم مستعار تحفيها على المنتقد في إبطال اللغويات النظرية الحديثة. ولم أكن منتصرا للقديمة في ذلك. فقد كنت في ذلك الوقت رافضا للقول النظري والفلسفي كله. لكنني مع ذلك كنت أرى أن البحث في الحوار اللغوي القديم وأسباب جموده وأصوله المعرفية النظرية التصويرية ومقارنة ذلك بشبهه في اللغويات الحديثة دون تقيد بها أو دعوة إليها خير وأصوب من نقل حوار أجنبي إلى متحاورين أجنبان عن الحوار. وما ظنك بقوم

يتحاورون في شأن تطور الحرب العالمية الثانية ساعتين من الزمن فيدخل في حوارهم قوم آخرون لا يعرفون ما حدث من اتفاق واختلاف في الساعتين الماضيتين وينقلون الحوار عن تلك الحرب بأشخاصها وأحداثها ويطبقونها على غزوة بدر؟

■ هل للأستاذ العلوي أن يرسم ملامح العلاقة بين الأدب بمختلف تجلياته (السيما، البلاغة، النقد...)، وما يحيط به (أصول الفقه التفسيري...) والدرس اللغوي اللساني؟ بصيغة أخرى هل استفاد الدرس الأدبي من البحث اللغوي؟ وما تجليات ذلك؟

● هذا سؤال قديم جديد؟ لكن الجواب عنه يستلزم الحديث عما هي اللغويات وعما هو الأدب. لن نستطيع أن نتحدث عن اللغويات كلها في معرض المقارنة، ولكن يمكن وضع جانب منها في ذلك المعرض. وليكن هو التركيب أو النحو باللغة القديمة. ما النحو؟ هو البحث عن الانتظامات التي تجعل كيانا لفظيا يعين طائفة من المعاني المتوحدة. بلغة أخرى: النحو هو البحث في العلاقات بين اللفظ والمعنى. هذه العلاقة بين اللفظ المفرد والمعنى لا تحتاج إلى طول نظر. يشتغل بها المعجم الذي يقدمها في صورة جاهزة. أما ما فوق الكلمة المفردة فأمر يفتقر إلى تأمل طويل. وقد تأمل اللغويون منذ العهد القديم في ذلك فلم يبلغوا منه إلى ما فوق التقسيم الثلاثي الذي يتعرف أنواع الجمل الثلاثة المعلَّب بعضها في بعض. لا يعيننا الدخول في التفاصيل. مختصر القول إن العلاقات بين الجمل ومعانيها هي موضوع التركيب، ومختصره أيضا أن النحو أو التركيب بحث في كفيات الدلالة، أي في كيفية دلالة المختلف المتعدد الجملي على المعنى. لكن المختصر التعريفي الأجود هنا هو أن النحو بحث في ما تكون به الجملة جملة لا أصواتا فارغة من المعنى. بلغة أخرى يكون النحو بحثا في الحدود بين المعنى واللامعنى. ما الأدب؟ الأدب مجال واسع فلنكتف هنا بالنظر في الأدب القصصي. إن نظرنا في أهداف النحاة وأردنا أن نجد لها مكانا في السؤال عن الأدب، كان الجواب هو أن نتساءل عن كفيات اكتساب الأثر اللغوي صفة القصة، أي عن الحدود بين القصصي وغير القصصي. بعضهم ظن أن استلهام اللسانيات أو الممارسة اللسانية على الأدب هي استيراد الأحكام النحوية من مجالها التركيبي والبحث عنها في الأعمال الأدبية. هؤلاء تراهم يحصون عدد الجمل من النوع الفلاني وعدد التكملات الجمالية، والجمل الاسمية والفعلية والفصل والوصل وتتابع صيغة الحال وتزاوجها في العمل مع التمييز أو غير ذلك. هذا ليس ممارسة لسانية في الأدب. هذا يدعى دراسة للجمل في النص الأدبي. هناك فرق بين البحث في الجملة في الكلام العادي أو في القصة أو في الخطبة أو في الموعدة أو في القصيدة، وبين البحث عن الكيانات النوعية التي تجعل الأثر قصصيا أو شعريا أو غير ذلك من أنواع القول الأدبي. استيراد الوسائل اللسانية لا يعني تحويل الأثر الأدبي إلى موقع للتدريب اللغوية، أو إلى أمثلة للتحققات الجمالية. لا. إنه يعني استيراد الوسائل والأهداف كما هي محددة عند اللغويين، والبحث عن إمكان استعمالها لاستخراج كيانات وانتظامات تعرف بها أدبية الأدب وقصصية القصة وشعرية القصيدة.

أقول هذا لأنني اطلعت من قبل على أعمال تدعي النقدية الأدبية وتدعي الانتفاء اللساني، وفهمت فيها العلاقات بين المجالين فهما منحرفا. هل يجب أن يبحث عالم الأدب المقتدي باللسانيات في جمل القصة أو جمل القصيدة؟ لو فعل لكان مجرد نحوي ضعيف لا يبحث في الانتظامات ويسقط في النزعة الإحصائية

التي لا تفيد علما إلا بذلك الأثر المدروس في ذاته دون غيره، والحال أن عالم الأدب لا ينبغي أن يكون هدفه النص الفلاني وحده، ولكن كل النصوص التي يجمعها اسم الأدب أو اسم القصة أو غير ذلك من الأسماء. باختصار: إن كان سؤال النحوي هو: ما الذي يجعل الجملة جملة؟ فإن سؤال عالم الأدب يكون هو: ما الذي يجعل القصة قصة؟ والقصيدة قصيدة؟ والحكاية حكاية؟

إذن، فالصلة بين الأدب واللسانيات تسجّل في مستوى استيراد الأسئلة، لا في مستوى استيراد الأجوبة.

في زمننا أعمال تستجيب للغرض الذي أشرت إليه. منها أعمال بروب وأعمال بريمون وغيرهما. ذكرتهما دون غيرهما لأنهما أشد الأعمال وضوحا في موضوعنا. لماذا؟ لأن من يقرأهما لا يحس بأن كاتبيهما «نحويان» يعملان مَعَوَّلَ السُّؤال النحوي في النص الحكائي. لا يحس بأنهما يبحثن في النحو. والحال أن كل شُغْلِهما نحو، ولكنه نحو الحكاية أو نحو الأدب، لا نحو الجملة.

هذه القضية تحتاج هنا إلى مزيد نظر. كيف؟ النحاة اللغويون يدرسون الجملة. وذلك معناه أنهم يدرسون أمرا متصورا هو المجمل والجملة، لا المتكلم الطبيعي. المجمل هو كيان مبني نظريا، أي تصوريا أو تخيليا، والجملة نتاجه وإنجازه. كيف؟ العالم ليس فيه مجملون لا شغل لهم إلا إنتاج الجمل اللغوية، وما فيه من إنتاج لغوي ليس جملا مفصولة عن الزمان والمكان والأشخاص والتاريخ. لكن النحاة يدرسون بالضبط تلك الجمل المفصولة ويدرسون بالتحديد ذلك المجمل. إنهم يفترضون أو يتصورون أو يتخيلون أن اللغة كيان قائم، وأن الإنتاجات اللغوية مستقلة عن المتكلمين الطبيعيين. وهم بذلك يتصورون جانبا يجعلونه موضوعا لعلمهم ويلغون الجوانب الأخرى. الجملة المفصولة التي يدرسها النحوي قد نجدتها في نص أدبي لكاتب روائي. هي في ذلك النص كائن أدبي يؤلف جزءا منه، ولكنها عند النحوي مجرد جملة لا صلة لها بالرواية ولا بما يجعل الرواية رواية.

إذن الإنتاج اللغوي الواحد في الطبيعة، وبالطبيعة ينفجر في التصور، ويتشظى ليتحول إلى جملة ومجمل، وإلى قصيدة وشاعر، وإلى رواية وراوي.. إلخ. الراوي الذي لا شغل له إلا الرواية والشاعر الذي لا شغل له إلا الشعر هو كالمجمل الذي لا شغل له إلا إنتاج الجمل. كل أولئك كائنات غير موجودة في الواقع، وإنما هي كيانات مبنية نظريا أو تصوريا أو تخيليا. ولعل الإشارة في القرآن الكريم إلى ذلك في رد الحق على الذين زعموا أن محمدا عليه السلام شاعر، وفي قوله: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ». يتبعهم الغاؤون لأن من لم ينتبه إلى أن موضوع المباحث النحوية والسيمائية موضوع مبني نظريا أو تصوريا غَوَى وضل.

هنا لا بد من أن نتساءل عن الصلة بين النظرية والشعر، وبين الأبنية الشعرية والأبنية النظرية. إن النظرية خيال، وهذا يتبين مما قلناه من قبل. المجمل والجملة خيال نحوي يمكن النحوي من الشروع في بحثه، ولولا أنه يتخيل اقتطاع إقليم الجملة من الواقع اللغوي للمتكلمين، لما أمكنه الشروع في ذلك. الراوي والرواية والشاعر والقصيدة المنفصل عن تاريخ الإنسان وزمنه الشخصي وحوادثه السيرية خيال أيضا. الروايات التي كتبها دوستوفسكي مثلا هي من جهة نشوئها حوادث من حياته، ولا يمكن معرفة حقيقتها إلا إن عرفنا حقيقة الكائن الإنساني المدعو دوستوفسكي. وذلك أمر متعذر ومتعسر. إن البحث

النظري لا يقوم إلا بعد إبعاد الفاعل الطبيعي. ثم إن البحث في الفاعل الطبيعي ممتنع لأن معرفة الإنسان الطبيعي في جملته ووحدته تتعذر عليه، لأنه لا يستطيع أن يكون موضوعا معرفيا لنفسه إلا بالتخيل وإقامة الأبنية النظرية.

إذا كانت الأبنية النظرية خيالا يضطر إلى إقامته كل باحث في الإنسان، وإذا كان الكلام الشعري خيالا، فما الصلة بين الخياليين؟

إن الناظر يتحدث عن كائنات موجودة في النظر لا في الواقع، والشاعر يرسم كائنات تشبه الواقع وليست به. الناظر لا يرسم الشخص. يلغيه لفائدة الكائنات التي يصنعها صنعا بنظره كالمجمل وغيره. أما الشاعر فلا يلغي الشخص، ولكنه يرسم بخياله شخصا آخر يدعي أنه الشخص الواقعي وليس به.

في النهاية، يكون الشخص هو الجامع بين الأدب واللسانيات. هو الجامع الذي تعالجه اللسانيات بطريقة يمكن نقلها إلى الأدب بنقل الأسئلة لا الأجوبة. ويكون الشخص أيضا هو الجامع بين النظرية العاملة في اللسانيات والأدب وبين الشعر.



المساهمون في العدد :

- حسن المودن
- سعيد جبار
- سعاد اليوسفي
- السعيد أهرو
- صبيحة جمعة
- عبد الرحمان التمارة
- عبد العالي العامري
- عابد لزرق
- مبارك حنون
- محمد بلبول
- محمد غاليم
- محمد الدرويش
- محمد عدناني
- محمد الباح
- محمد مرزوق
- امحمد الملاخ
- منذر عياشي
- مولاي أحمد العلوي
- مولاي حفيظ العلوي
- وئام المددي

البراعة والنقد الأدبي

مجلة فصلية علمية مُحكَّمة

الثمن : 38 درهما

